الفصل التاسع

الحرب الخاطفة

obeikandl.com

obeikandl.com

لاشك في أن الآراء التي تروى عن الهجوم الجوي الألماني على بريطانيا هي آراء متناقضة ذات أهداف متباينة ، وخطط مبتورة ، ففي خلال هذه الأشهر كلها ، كان يقلق راحتنا ، ليتخذ أسلوبًا جديدًا ، ولكن هذه المراحل جميعها متداخلة وليس في المستطاع الفصل بينها بتواريخ دقيقة محددة. فالمرحلة الواحدة منها تسلم إلى المرحلة الثانية وتتداخل فيها ، وكانت العمليات الأولى تهدف إلى الالتحام مع قواتنا الجوية في معارك فوق المانش والساحل الجنوبي ثم تحول القتال إلى سماء المقاطعات الجنوبية وخصوصًا في كنت وساسكس حيث أراد العدوان يحطم جهاز قوتنا الجوية، ثم أخذ يتجه نحو لندن قليلاً قليلاً حتى أصبح أخيرًا يحلق في قلب سمائها حيث أضحت المدينة هدفه الرئيسي ، وأخيرًا عندما أحرزت لندن النصر ، انتقل القتال إلى سماء المدن في الأقاليم وإلى شريان الحياة البريطاني خلال الأطلنطي عن طريق ميرس وكلايد .

وقد شهدنا الهجمات الألمانية العنيفة على مطارات الساحل الجنوبي في الأسبوع الأخير من شهر آب . والأسبوع الأول من شهر أيلول ، وفي السابع منه تسلم غورنغ قيادة المعركة الجوية وجعل الغارات ليلية ، ونقل مكان المعركة من مطارات «كنت وساسكس» إلى عمارات لندن وأبنيتها، أما الغارات النهارية فلم تنقطع وإن كانت ثانوية ، حدث هذا باستثناء غارة نهارية ضخمة أخرى ، لكن الطابع العام للهجوم الألماني قد تغير تمامًا ، وقصفت لندن بصفة متواصلة لمدة سبع وخمسين ليلة دون انقطاع مما جعل أكبر مدن العالم تواجه تجربة خطيرة بل محنة قاسية ، ولم يكن في مقدور أي إنسان أن يتنبأ بالنتائج ، ولم يسبق قط أن تعرضت هذه البلدان لمثل هذا القصف الجوي الراعد ، كما لم يسبق أبدًا أن واجه العدد الضخم من الأسراب والمشكلات والمصاعب التي أحدثها هذا القصف الرهيب ونكباته .

وقد قمنا بغارة على برلين ردًا على هذه الغارات المتواصلة على لندن في نهاية شهر آب ، بالرغم من المسافات الشاسعة التي كان على طائراتنا أن تجتازها ، ولم تكن مثل هذه الغارة شيئًا مذكورًا بالنسبة للغارات الألمانية المركزة على لندن والمطارات القريبة الفرنسية والبلجيكية . ولكن وزارة الحرب رأت نفسها في وضع يحتم عليها الثأر رفعًا للروح المعنوية ، وتأكيدًا لتحدينا للعدو ، وكنت على ثقة من صحة هذا الرأي وجدواه ، إذ أني أعلم أن هتلر

يثير اضطرابه صمود بريطانيا وإظهار قوتها ، وإن كان هتلر في أعماق نفسه يعجب بشعبنا ، وبالطبع واتته الفرصة حين قمنا بغارتنا الثأرية على برلين فأعلن ما انطوت عليه نفسه من رغبة في تحويل لندن وغيرها من المدن البريطانية إلى أطلال ورسوم حين صرح في الرابع من أيلول قائلاً: «إن هجومهم على مدننا سيدفعنا إلى إزالة مدنهم من الوجود» .

وقد بذل هتلر أقصى ما يستطيع من جهد .

وأسهم في الغارات الليلية المتواصلة على لندن بين ٧ أيلول و٣ تشرين الأول أكثر من مائتي طائرة في كل غارة ، وكانت الهجمات التمهيدية العديدة التي نزلت بمدننا الإقليمية في الأسابيع الثلاثة الماضية قد فرضت علينا أن نوزع مدفعيتنا المضادة للطائرات بصور فعلية ، وعندما أصبحت لندن الهدف الرئيسي للمرة الأولى لم تكن تحتوي على أكثر من اثنين وتسعين مدفعًا، ورأينا أن الأجدى ترك الجو حرًا لطائراتنا الليلية المقاتلة تحت قيادة المجموعة الحادية عشرة ، وكان من بين تلك الطائرات ستة أسراب من طراز «بلنهايم» وطراز «دينايانت» وكان الاشتباك الليلي ما يزال في بدايته ولذلك فإن خسائر العدو كانت طفيفة ومحدودة ...

وهكذا استمرت مدافعنا المضادة متوقفة عن العمل في الليالي الثلاث الأولى ، وبالرغم من عدم دقة الوسائل التي تستخدمها المدافع المضادة ، فقد اضطرنا ضعف طائراتنا الليلية المحاربة ومدى ما نواجهه من مشاكل في حاجة إلى الحل ، اضطرنا كل أولئك إلى أن نعطي لرجال هذه المدفعية الحرية التامة في إطلاق نيرانهم على أهداف غير واضحة متخذين أي أسلوب يختارونه لتحديد الهدف ودقته ... وبعد ثمان وأربعين ساعة ، تمكن الجنرال بايل ، المشرف على قيادة المدافع المضادة من زيادة عددها في العاصمة بجلب عدد من مدن الأقاليم، وهكذا أخليت السماء من طائراتنا المقاتلة ، وقامت المدافع المضادة بمهمة الدفاع . ومكث أهل لندن ، ثلاث ليال متعاقبة، ملازمين مساكنهم أو معسكراتهم غير المعدة ، محتملين أعنف الغارات حتى كانت ليلة العاشر من أيلول حين انطلقت مدافعنا المضادة فجأة تضيء لها السبيل المصابيح الكاشفة المتوهجة ، وبالرغم من دويها العظيم فلم تنزل بالعدو أضرارًا جسيمة إلا أنها أعلت الروح المعنوية بين أبناء العاصمة، وتمشت الحماسة في

صدر كل إنسان لمجرد الإحساس بأننا نرد الصاع صاعين ، واستمرت المدافع المضادة منذ ذلك الوقت تتابع إطلاق نيرانها بصفة منتظمة ومتواصلة ، ومهد التمرين والاختراع وإلحاح الحاجة إلى زيادة التصويب دقة ، وأخذ عدد الطائرات المصابة من سلاح العدو يتكاثر ليلة بعد أخرى ، وكانت المدفعية تلوذ بالصمت أحيانًا حين تنطلق الطائرات الليلية المقاتلة لتخوض غمار المعركة ، بعد أن تحسنت أساليبها ، وظلت الغارات الليلية بل النهارية متواصلة إلى الحد الذي كانت تشن فيه هذه الغارات مجموعات صغيرة من الطائرات بل طائرة واحدة أحيانًا ، وطالما أطلقت صفارات الإنذار ، ودوي صوتها فترات متلاحقة طيلة ساعات اليوم بأكمله، ولكن أهل لندن الذين يبلغون في ذلك الوقت سبعة ملايين قد رتبوا حياتهم على وضع يلائم تلك الأحوال الشاذة .

❖ ❖ ❖

ولتنوير القراء ورغبة مني في الترفيه قليلاً عنهم ، والتخفيف من وقع هذه التجربة القاسية على مشاعرهم ، أورد هنا بعض ملاحظاتي الشخصية عن غارات لندن ، متيقنًا أن لدى الآلاف من أبناء العاصمة كثيرًا من الحكايات التي تفوق في إثارتها هذه الملاحظات .

فعندما أخذت طائرات العدو في قصف جو العاصمة كنا نرى أن نواجه هذه الغارات بالتهوين وعدم الاكتراث ، فاستمر كل إنسان في حي «الوست أند» يعمل ويلهو ، ينام ويأكل كما تعود ، دون أن يغير شيئًا من مجرى حياته العادية ، فالمسرح مزدحم بالمشاهدين والشوارع المظلمة تموج بالمارة ، ولعل هذا الموقف كان رد فعل صائب للرعب الذي بدأ في العناصر الانهزامية في باريس ، عندما تعرضت المدينة لأول هجوم جوي في شهر أيار . وأذكر أني كنت على مائدة العشاء ذات ليلة مع صحبة خيرة ، عندما حدثت غارات مستمرة قوية ، وكانت نوافذ قصر «ستورانواي» - حيث كنا نجلس - تطل على - جرين بارك - الذي أنارته أضواء المدافع المضادة وانفجار القذائف المضادة ، وهيئ لي أننا كنا نغامر بأرواحنا ، دون ما ضرورة أو مبرر . وبعد أن تناولنا العشاء انتقلنا إلى عمارة شركة الصناعات الكيميائية الإمبراطورية وهي تطل على الجسر ، وكان منظر النهر يأخذ بنفوسنا ونحن نطل عليه من الشرفات العالية ورأينا على الأقل عشر حرائق تشتعل في الجانب الجنوبي، وبينما كنا نقف

تساقط عدد من القنابل الثقيلة ، انفجرت إحداها بالقرب مني فدفعني صديق إلى وراء عمود حجري راسخ القواعد ، وأكدت لي هذه الحادثة الفكرة التي خطرت ببالي وهي أن نكيف حياتنا مع الوضع الجديد ، وأن نفرض على متع حياتنا كثيرًا من القيود .

وسقطت القنابل مرات عديدة على مجموعة من الأبنية الحكومية المحيطة بالبيت الأبيض ، على أن دور الحكومة في «داوننج ستريت» قام ببنائها قبل مائتين وخمسين عامًا المتعهد الاستغلالي الذي ما زال اسمه محفورًا على أسس ضعيفة واهنة ، وخلال أزمة ميونيخ أقيمت المخابئ لسكان رقيم (١٠ و ١١) من هذا الشارع ، كما دعمت الأسقف بأعمدة جديدة قوية ، وأنشئت سقوف أخرى داخلية ، وكان الظن أن هذه الأسقف الجديدة تستطيع أن تصعد فيها إذا نسفت الأبنية أو انهارت ، لكنها لا تحتمل على أية حال الإصابة المباشرة ، وقد تم في الأسبوعين الأخيرين من أيلول نقل مقر رئاسة الوزارة إلى مكاتب جديدة أكثر تحملاً وصلابة ، مطلة على ميدان «سانت جيمس» وكنا ندعو هذه الأبنية باسم (الملحق) وقد ظللت مع زوجتي خلال الأيام الباقية من الحرب في هذا البناء ، ننعم بالهدوء والراحة ، وكنا نوقن أن هذه الأبنية القوية المشيدة من الأسمنت في وسعها أن تصد الحديد والفولاذ وعلقت زوجتي عددًا من صورنا في غرفة الاستقبال التي كنت أقترح عليها أن تظل بلا صور ، ولكنها نفذت فكرتها، وتغلبت علي بالطبع، وساعدتها الأحداث ، وكان منظر لندن رائع الجمال حين نراها من سطح (الملحق) على مقربة من القبة في الليالي الساجية، وقد هيؤوا لي مكانًا على السطح ، فوقه سقف متين، كي أتمكن في ضوء القمر من مراقبة الغارات الجوية ، وتحت هذا المكان أقيمت غرفة الحرب حيث زودت ببعض الأثاث الصالح للنوم ، وحيث لا تجد القنابل إليها منفذًا . وكانت القنابل في تلك الأيام أصغر بالطبع من القنابل التي طالعتنا في المراحل الأخرى من الحرب ، وبالرغم من ذلك كانت حياتنا في داوننج ستريت في الفترة التي سبقت بناء هذا المسكن الجديد مثيرة للغاية ، إذ كان كل منا يحس وكأنه قد دفع به إلى مركز قيادة إحدى الفرق في ميدان القتال .

ولست أنسى مساء يوم السابع عشر من تشرين الأول حيث كنا نتناول عشاءنا في غرفة الحديقة في داوننج ستريت رقم ١٠ عندما انطلقت الغارة الليلية المألوفة ، وكان

يشاركني العشاء أرشي سنكلير وأوليفر ليتلتون . وكانت النوافذ الفولاذية مغلقة ، وحدثت بعض الانفجارات المدوية بالقرب منا ، وسقطت قنبلة على مكان استعراض حرس الفرسان ، وهو لا يبعد عنا بأكثر من مائة ياردة ، وكان دويها هائلاً ، وعلى حين غرة شعرت بهاتف سماوي ... ينبهني إلى الخطر الماثل . فالمطبخ عال ومكشوف وبه نافذة زجاجية يبلغ طولها خمسة وعشرين مترًا ، والساقي والفتاة يقدمان لنا العشاء دون تأثر بدوي الانفجارات ، وخلف النافذة توجد السيدة لانذمير الطباخة وسائر الخدم أن يسرعوا إلى المخبأ ، ثم عدت إلى مكاني بالمائدة ، وأمرت الساقي أن يحمل العشاء إلى غرفة المائدة مباشرة ، وطلبت إلى الطباخة وسائر الخدم أن يسرعوا إلى المخبأ ، ثم عدت إلى مكاني بالمائدة ، فلم تمر ثلاث دقائق حتى فوجئنا بدوي هائل وأصوات دمار جد قريبة وشعرنا بهزة عنيفة مما يؤكد أن البيت نفسه قد أصيب وجاء مفتش المباحث الملحق بخدمتي ليخبرني بفداحة الخسائر ، فقد أصيب المطبخ ، ومخزن التموين ومكاتب القسم المالي ...

وذهبنا إلى المطبخ لنشاهد ما جرى ، فلم نر إلا أنقاضًا ! فقد سقطت القنبلة على بعد خمسين ياردة على القسم المالي ، فدمرت كل ما في المطبخ ، وتحول إلى أنقاض ، وتهشمت النافذة الزجاجية الكبيرة وتطايرت شظاياها في كل جوانب المطبخ ، ولو ظل به أحد إلى أن حدث الانفجار لغدا أشلاء مبعثرة ، ولا شك في أن الهاتف السعيد الذي خطر لي جاء في وقته المناسب. أما مخبأ القسم المالي في الساحة فقد أصابته قذيفة مباشرة فتناثرت أجزاؤه ، واستشهد تحت أنقاضه أربعة حراس كانوا يقومون ليلاً بأعمال الحراسة ، وعلى أية حال فلم يكن في مقدورنا أن نحدد عدد المفقودين ، فقد دفن الجميع تحت ركام الأنقاض .. ولما كانت الغارة متواصلة ، فقد لبسنا خوذنا وارتقينا الدرج إلى سطح الملحق لنشاهد المنظر كاملاً ، وقبل ذهابي لم أستطع مقاومة الرغبة في أن أغري الطباخة والخدم بالتوجه إلى المطبخ، وبالطبع أصيبوا بالهلع من رؤية مكانهم وقد استحال إلى ركام. وصحبت أرشي إلى سطح الملحق ، وكان المساء ساكنًا والجو صافيًا ، وكانت لندن بكاملها تجاهنا ، ورأيت معظم حي (بال مال) تأتي عليه النيران ، وعلى أية حال كانت ثمة خمسة حرائق مضطرمة في الجانب المقابل من المدينة على طول النهر ، لكن (بال مال) كان طعمة للنيران ... ثم أخذت الغارة

تنزاح غمتها شيئًا فشيئًا إلى أن دويت صفارة الأمان، وإن ظلت الحرائق مشبوبة في المدينة ... ونزلت إلى مسكني الجديد في الطابق الأول من الملحق فوجدت الضابط دايفيد فارجسون، رئيس مراقبي مجلس العموم، والذي يقطن في نادي كارلتون، وقد أخبرنا أن دار النادي قد تهدمت، وكنا قد تخيلنا ذلك بأنفسنا بمجرد أن شاهدنا اندلاع النيران، وكان فارجسون في النادي عندما دوي الانفجار، وحوالي مائتين وخمسين من الأعضاء والموظفين، وقد أحدث الانفجار قذيفة ضخمة مباشرة، أطاحت بواجهة المدخل من جهة شارع (بال مال). وكان الأعضاء يزدحمون في قاعة التدخين، فتهاوى السقف عليهم، وعندما شاهدت الأنقاض في اليوم التالي أخذتني الدهشة لأن أحدًا من كانوا في القاعة لم يقتل، وإنما نجا الجميع رغم الأنقاض والدخان وكأنما حدثت معجزة، ولئن أصيب بعضهم بجروح إلا أنهم نجوا من الموت جميعًا. وعندما سعيت بالحقائق مفصلة إلى مجلس العموم، قال زملاؤنا الوزراء من حزب العمال مازحين: «إن الشيطان لا يمس أنصاره بسوء». وقد انتشل المستر كانتان هوغ والده، وهو وزير مالية سابق، انتشله من بين الركام، كما حمل إينياس والده انخيزاس في حرب طروادة. ولم يجد فارجسون مسكنًا يأوي إليه في تلك الليلة، فأعددنا له سريرًا في الطابق الأرضي من الملحق، لقد كانت هذه الليلة بصورة عامة مثيرة للفزع، وكان من الغريب حقًا بالنظر إلى إصابات المباني ألا يزيد عدد القتلى عن خمسمائة شخص وعدد الجرحى عن ألفين أو ثلاثة آلاف.

ومضيت للمرة الثانية إلى زيارة رامسغيت، وشن علينا الهجوم فمضوا بي إلى النفق الكبير الذي يقيم فيه عدد كبير من الناس بصفة مستمرة، وعندما غادرنا النفق بعد ربع ساعة تقريبًا، بدأنا نتأمل الخرائب التي ما زال يتصاعد الدخان من جوانبها، وقد تهدم فندق صغير دون أن يصاب أحد من نزلائه بأذى على الرغم من تحوله إلى تل من الركام والحجارة تتناثر خلالها قطع الأثاث المحطم، وأدوات المطبخ، وراعنا صاحب الفندق وزوجته والطباخون والخدم، وهم يولولون حول فجيعتهم في مصدر رزقهم ومأوى حياتهم ... وعندئذ قررت بكل مالي من نفوذ وإمكانيات أن أصدر أمرًا بالتعويض الفوري الكامل، وعندما عدت بالقطار أمليت على وزير المالية كنغزلي وود الرسالة التي توضح هذا المبدأ الهام

وهو أن كافة الخسائر التي تحدثها الغارات يجب أن تكون على مسؤولية الدولة ، وأن الحكومة تلتزم بتعويضها حتى لا يقع عبؤها على كاهل الذين يصابون في بيوتهم أو أعمالهم ، بل على كاهل الشعب كله تحقيقًا للعدالة فقد أثار هذا القرار فزع كنغزلي وود بما ينطوي عليه من التزام لا نهائي . ولكني أكدت له ضرورة القيام بهذا الإجراء، ولم يمض أسبوعان على ذلك حتى كانت وزارة المالية قد جهزت مشروع التأمين الذي قدر له أن يقوم بدور فعال في حياتنا .. وقد واجهت وزارة الخزينة مشاعر مضطربة ومقاومة إزاء هذا المشروع، فقد ظنت في بادئ الأمر أنه سيستنزف الخزينة حتى الإفلاس، ولكن بعد أيار عام ١٩٤١ ، حيث توقفت الغارات الجوية أكثر من ثلاث سنين ، أخذت المكاسب تنهال على خزينة الوزارة بفضل هذا المشروع الذي اعتبرته أنا في حينه عملاً من أعمال التوفير والبراعة السياسية، وفي أواخر مراحل الحرب عندما أخذنا بغارات الصواريخ والقذائف الموجهة صعدت الأرقام ثانية إلى جانب الخسارة وتكبدنا ما لا يقل عن ثمانمائة وتسعين مليونًا من الجنيهات في شؤون التعويض وبالرغم من كل ذلك فقد كنت غير مستاء لما يحدث .

❖ ❖ ❖

وأصبح من المحتم في هذه الفترة الجديدة من الحرب ، أن نستفيد بغاية ما نستطيع من العمل ، ليس في المصانع فقط بل في الدوائر الحكومية بلندن كذلك ، بالنسبة لتعرضها لهجوم جوي مستمر ليل نهار ، فكان الموظفون في البداية عندما تدوي صفارات الإنذار يسرعون إلى الطوابق الأرضية حيث تستخدم كملاجئ للوقاية ، وكان يثير زهونا أن تتم هذه العملية في هدوء ونجاح، وفي أحوال كثيرة لم تكن الغارة تعني أكثر من هجوم من بضع طائرات أو حتى طائرة واحدة ، وطالما عوقت هذه الطائرات فلم تصل إلى العاصمة ، وهكذا يتوقف العمل في جميع المصالح الحكومية الإدارية والتنفيذية بسبب غارة صغيرة تافهة . لذلك فقد فكرت في أن يستخدم الإنذار على مرحلتين . مرحلة التنبيه المبدئي ومرحلة الخطر الفعلي الذي لا تنطلق صفاراته إلا حين يحل الخطر ويصبح في حالة مداهمة فعلية ، فقبل اقتراحي ونسقت الخطة على أساسه .

وكان البرلمان أيضًا في أشد الحاجة إلى الإرشاد بالنظر إلى مواصلة عمله في تلك الأيام

المليئة بالخطر، وكان أعضاء المجلس يوقنون بأن واجبهم يحتم عليهم أن يكونوا مثلاً للشعب، ولا شك في أن الحق كان بجانبهم في هذا اليقين، ولكن كان على أن أوجه انتباههم إلى ضرورة اتخاذ الحيطة والحذر نظرًا إلى الأخطار المحدقة، واستطعت إقناعهم في جلسة سرية بوجوب اتخاذ الإجراءات الوقائية الضرورية، فاتفقوا على كتمان مواعيد الجلسات، وإيقاف النقاش حين تدوي صفارات الإنذار، وصاروا يخفون بنظام إلى المخابئ المفعمة والتي لم تكن معدة كما يجب.

ولا شك في أن مواصلة البرلمان البريطاني أداء مهمته وتصريف الشؤون في تلك الآونة يعتبر صفحة مشرقة في تاريخه وذيوع شهرته، والنواب عادة أكثر الناس حساسية بالنسبة لمهامهم في هذه الظروف، فكان من اليسير على أي إنسان ألا يحسن الحكم على حقيقة تصرفاتهم، فعندما تنزل الأضرار بإحدى القاعات كانوا ينتقلون إلى قاعة أخرى، وكنت أواجه صعوبات جمع في إقناعهم بضرورة الأخذ بوسائل الحكمة والموعظة الحسنة لكن جميع النواب في هذه الفترة قد نهجوا نهجًا ينم عن التعقل ووزن الأمور والحرص على الكرامة. ومن حسن الطالع أن الانفجار الذي حدث بعد عدة شهور وأطاح بقاعة مجلس الشيوخ، حدث ليلاً حينما كانت القاعة خالية من أي إنسان.

ولقد أعطانا تفوقنا على الغارات النهارية إحساسًا بالراحة والهدوء النفسي، أما في خلال الشهور الأولى فقد سيطر على الشعور بالقلق الذي يتمتع بحقوق السيادة، والذي انتخب بطريقة عادلة ونزيهة وهي الاقتراع العام، وفي يده دائمًا القدرة على إسقاط الحكومة، ولكنه الآن في أقسى الظروف كان يدعمها ويسند مركزها، وهكذا كتب النصر لبرلماننا.

وإني لا أعتقد أن أي دكتاتور قد حاز من السلطات الفعلية في بلاده مثل تلك التي خولت لوزارة الحربية البريطانية، وكنا عندما نعبر عما نريده يعطينا نواب الشعب تأييدهم فيطيع الناس رغباتنا بسعة أفق وحرية، وعلى الرغم من ذلك لم نحاول مرة مصادرة الحريات وإن ظل الناقدون بأنفسهم يرجحون المصلحة القومية على أي شيء آخر. وإذا تحدانا النقاد رأينا المجلسين يصوتان ضدهم بأغلبية ساحقة، وإذا ما قورن هذا بأساليب الدول الجماعية، بدا لنا أن برلماننا كان يخولنا هذه السلطة ضد الناقدين بلا أدنى اضطهاد أو

كبت أو إيحاء أو استعمال للشرطة وأجهزة الأمن السرية، ولاشك في أن هذا كان يثير زهونا واعتزازنا، ويؤكد لنا أن الديمقراطية البرلمانية أو على الأصح ما يحق أن نسميه السلوك البريطاني في الحياة العامة قد استطاع الصمود والانتصار والبقاء بالرغم من كل المحن القاسية، ولم يستطع التهديد بالإبادة وإفناء أعضاء برلماننا أن يرهب أحدًا، وكان من حسن الحظ أن هذا التهديد لم ينفذ ولم تحدث الإبادة.

❖ ❖ ❖

وحل منتصف شهر أيلول، ففاجأنا العدو باستعمال نوع جديد ومدمر من وسائل الحرب علينا، فقد بدأت الطائرات تلقي بقذائف تنفجر بعد مرور بعض الوقت مما وضعنا أمام مشكلة حساسة وغريبة، وكثيرًا ما سارت في وجوهنا مسافات شاسعة من السلك الحديدية، فنخترق الطرقات الهامة، والسيل الموصلة للمصانع الحيوية والمطارات والمؤسسات، وحظر علينا دخولها في أوقات احتياجنا إليها، إذ فرض علينا أولاً أن نتعقب هذه القنابل لنفجرها أو نتلفها، وكانت هذه عملية خطيرة وخاصة في بداية الأمر، عندما اضطررنا إلى أن نتعلم الوسائل والأساليب بواسطة عمليات من التجارب الموضحة.

وقد تكلمت سابقًا عن حكاية الألغام المغنطة، أما هذه القذائف المتفجرة من تلقائها فقد أصبحت منتشرة، وصارت مشكلة تحتاج إلى التفكير، وقد وجهت اهتمامي إلى القنابل المؤقتة منذ عام ١٩١٨ عندما استعملها الألمان لأول مرة ضدنا بصورة شاملة ليرغمونا على عدم استخدام القطارات في زحفنا على ألمانيا، وكنت قد اقترحت أن نستخدمها في النرويج وقناة كيل ومنطقة الراين، ولاشك في أن هذا السلاح من أكثر أسلحة الحرب فعالية بالنسبة إلى ما يشيعه من التوجس والقلق والارتياب، وهكذا دار الزمن لنذوق نحن طعم هذا السلاح، فأنشأنا هيئة خاصة للتصرف في شأنه، وعهدنا إلى مجموعات خاصة شكلت في كل مدينة وبلدة ومقاطعة لتتبعه، وسارع المتطوعون يبذلون جهودهم لمكافحة هذه القنابل، وتكونت فرق كان بعض منها حسن الحظ وكان للأخرى سوء المصير، وقد استطاع رجال من هذه الفرق النجاة من العاقبة الوبيلة لهذا السلاح، والعيش إلى نهاية الحرب، بينما نجا البعض الآخر من التجربة العاشرة أو العشرين أو الثلاثين أو الأربعين قبل أن يلقوا حتفهم،

وكنت حين أشاهد أعضاء هذه الفرق أينما ذهبت في رحلاتي وتجولاتي، أرى وجوههم مغايرة تمامًا لكل الوجوه التي أعرفها أو رأيتها، بالرغم مما يتحلون به من شجاعة وتفان وصبر، فعلى هذه الوجوه تبدو واضحة ظلال الشحوب، ومعالم الإجهاد، وسماته الضخمة والجهد، فضلاً عن بريق العيون وزرقة الوجوه وجفاف الشفاه، فإذا ما تذكرنا الأيام المضنية التي عشناها، فيجب ألا نستعمل كثيرًا كلمة (أوقات كئيبة) إذ تكاد الكآبة كلها تخص أفراد هذه الفرق وحدهم.

وواجب علي أن أسرد هنا ما حدث لإحدى هذه المجموعات كمثال لما كانت تواجهه سائر المجموعات، كانت هذه المجموعة تضم اللورد ساقولك وسكرتيرته وسائقه العجوز، وكانوا يسمون أنفسهم «الثالوث المقدس» وقد شاعت أخبار جرأتهم، وذاع الكثير عن شجاعتهم، وقد استطاعوا أن يتخلصوا من أربع وثلاثين قنبلة لم تنفجر، بروح طيبة مرحة، لكن القنبلة الخامسة والعشرين قد ثأرت لزملائها، فانفجر معها اللورد وسكرتيرته وسائقه وثالوثه المقدس ولكن الإيمان يملأ نفوسنا بأن أرواحهم عرفت مستودعها الأمين في دار الخلود ...

وقد توصلنا بفضل كل فرد في هذه المجموعات، وبالتضحيات النبيلة التي بذلوها إلى أن نتحكم في هذا الخطر الجديد.

❖ ❖ ❖

من الشاق علينا أن نعقد مقارنة بين الاختبار القاسي الذي مر به سكان لندن في شتاء عام ١٩٤٠ - ١٩٤١، وبين الاختبارات التي عاناها الألمان في سنوات الحرب الثلاث الأخيرة، فقد غدت القنابل أشد هولاً والغارات أكثر قسوة، ولكن من ناحية ثانية - كان الإعداد الطويل، وما اشتهر عن الألمان من دقة قد ساعدهم على إنشاء وحدات كاملة من الملاجئ المحصنة ضد القنابل، وكان يفرض على كل ألماني الالتجاء عند قيام الغارات كعمل عادي رتيب، وعندما اجتزنا ألمانيا في النهاية شاهدنا أنها قد أصبحت بكاملها خرائب وأطلالاً، ولكننا شاهدنا أيضًا عمارات مشيدة ما تزال صامدة على الأرض وملاجئ حصينة كان السكان ينامون فيها كل ليلة بالرغم من تساقط دورهم وخراب كل ما يملكونه

على سطح الأرض ، أما في لندن ، فعلى الرغم من أن الغارات كانت أقل قسوة ، إلا أن وسائل التأمين والوقاية كانت أبطأ تطورًا فإذا استثنينا الأقبية لم نجد عندنا أماكن للوقاية والتأمين . حقًا لقد كان ثمة طوابق أرضية ، وطوابق تحت الأرض تستطيع أن تجابه الضربات المباشرة ، ولكن عددها كان قليلاً لدرجة ملحوظة وكانت الغالبية من سكان لندن يمضون الليل في الخنادق الخاصة ببيوتهم تحت سيل من قذائف العدو ، مستمتعين بما اشتهر عن الإنكليز من حبهم للاسترخاء بعد يوم من العمل المثمر الجاد ، ولم تكن ثمة أية وسائل للوقاية إلا من شظايا القذائف لكن الانهيار النفسي لم يكن شيئًا بجانب الاحتمال البدني ، وحقيقة لو كانت قذائف عام ١٩٤٣ قد أسقطت على لندن في عام ١٩٤٠ لانتهينا إلى وضع قد دمر فيه كل تنظيم بشري ، ولكن لكل شيء وقته المعين ، ونسبه المحدودة ، ولا يملك إنسان القول بأن لندن التي لم تجرب الخضوع قط ، كانت محصنة ضد الاستسلام .

ولم تكن الحكومة قد شيدت قبل الحرب أو في الفترة السلبية الأولى التي مرت في مطلعها ، أية أماكن محصنة ضد القنابل تستطيع هيئتها المركزية أن تلجأ إليها لمواصلة الأعمال ، فقد درست خطط لتحويل العاصمة عن مدينة لندن ، وفعلاً انتقلت فروع بأكملها من جميع الوزارات والدوائر إلى هاروغيت وشبلتيفهام وغيرها ، واستولت السلطات على المساكن الكافية في مناطق شاسعة لسكني جميع الوزراء وكبار الموظفين حين الانسحاب من لندن ، أما في هذه الآونة وطائرات العدو تواصل عدوانها فقد انعقد عزم الحكومة والبرلمان ورغبتها الأكيدة على البقاء في لندن دون مناقشة ، وكنت أشاركهما نفس هذه المشاعر ، وكنت مثل غيري يخيل لي أن الدمار سيكون عامًا ، بحيث يصير الانتقال وتوزيع الأعمال أمرًا محتمًا ، ولكن بالنسبة إلى ما حدث بالفعل ، فقد امتلأ بعكس هذا الإحساس ، وظللنا في تلك الأشهر نعقد اجتماعاتنا الوزارية ليلاً في غرفة الحرب في الطابق الأسفل . ولم أكن أتخيل مدى ما يتحمله المستر تشمبرلين من عناء هذا السير بالنظر إلى العملية الجراحية التي أجريت له ، ولكن لم يستطع أي شيء أن يقعد به عن هذه الاجتماعات التي كان يتسم فيها بكثير من الهدوء البارد والتصميم الأكيد ، والتي كانت آخر ما شهده من اجتماعات .

ونظرت ذات مساء في أواخر شهر أيلول عام ١٩٤٠ من باب داوننغ ستريت الذي

يطل على الطريق ، فشاهدت العمال يقومون بوضع أكياس من الرمال تجاه النوافذ المنخفضة من بناء وزارة الخارجية المواجهة لنا ، وسألتهم عما يقومون به ، فقيل لي أن المستر نفيل تشمبرلين في أمس الحاجة إلى العلاج من حين لآخر بعد العملية التي أجريت له ، وكان من غير الميسور أن يقوم بهذا العلاج في ملجأ داوننغ ستريت رقم ١١ لأن عشرين شخصًا على الأقل يتجمعون فيه أثناء قيام الغارات ، ولذلك فقد تم تهيئة ملجأ صغير خاص به وظل حريصًا على عاداته اليومية ، لابسًا خير ثيابه، باديًا غاية في الأناقة وانسجام الهندام . وكان هذا كله أكثر مما في طوقه ، ولذلك قررت أن استخدم سلطاتي فذهبت إلى الطريق الممتد بين رقيم ١٠ و ١١ وحين رأيت السيدة تشمبرلين قلت لها : «ينبغي ألا يوجد هنا في هذه الظروف ، ويجب أن تبتعدي به حتى تعاوده الصحة وسأرسل إليه يوميًا بالأنباء » . وذهبت السيدة للقاء زوجها ، وبعد ساعة أرسلت لي تقول : «لقد أبدى استعداده لتنفيذ مشيئتك .. سنرحل الليلة » ولم ألتق به ثانية ، ولكني على يقين أنه كان يرغب في الموت أثناء قيامه بواجبه ولكن القدر شاء غير ذلك .

ونتيجة لوفاة المستر تشمبرلين حدثت بعض التغيرات الوزارية الهامة ، فقد أظهر المستر هربرت موريسون نشاطًا ملموسًا كوزير للتموين ، كما قابل السير جون أندرسن الهجمات على لندن بإدارة في منتهى الصمود والكفاية ، وتبين لي في مطلع تشرين الأول أن الهجوم المتواصل على أعظم مدن العالم كان من القسوة والعنف بحيث خلف الكثير من المشاكل السياسية والاجتماعية لدى أهل المدينة الذين واجهوا أقسى الظروف ، مما يفرض علينا أن نعهد إلى برلماني حازم صاحب خبرة وتجربة في شؤون وزارة الداخلية التي أصبحت في تلك الأونة وزارة الأمن الداخلي كذلك، فلندن هي التي تعاني قسوة الغارات ، وهوبرت موريسون واحد من أهلها ، وهو ملم بكل جانب من جوانب إدارتها ، وكانت له خبرة لا تبارى في حكم مدينة لندن . إذ كان رئيسًا فيما سبق لمجلس مقاطعتها ، وكان الشخصية البارزة في كافة أمورها وكنت في ذات الوقت في احتياج للسير جون أندرسن ليمثل الحكومة في مجلس الملك الخاص ، ليقوم كما يملي عليه منصبه الجديد بالإشراف على الكثير من الأمور الداخلية في مجال أوسع باعتباره رئيسًا للجنة الشؤون الداخلية التي يعهد إليها بالكثير

من المشاكل تخفيفًا لأعباء مجلس الوزراء . وأتاحت لي هذه التغيرات التي خففت العبء عن كاهلي أن أحشد اهتمامي لتصريف شؤون الحرب ، التي تبين لي أن زملائي يميلون إلى توسيع مسؤولياتي بشأنها وزيادة اختصاصاتي ولذلك فقد رغبت إلى هذين الوزيرين اللامعين أن يحل كل منهما محل الآخر ، ولم يكن ما قدمته لهربرت موريسون طريقًا مفروشًا بالورود وليس في مقدور هذه الصفحات بحال ما أن توضح المصاعب الجمة في إدارة لندن وحكومتها في ذلك الوقت الذي كان يضحي فيه عشرة آلاف مواطن أو عشرون ألفًا كل ليلة بدون مأوى نتيجة للهجوم الجوي المستمر ، عندما كان حذر السكان وحرصهم وحده بمثابة حرس أولي يقاوم حدوث الحرائق على أسطح المنازل التي قد يتعذر القضاء عليها ، وعندما اكتظت المستشفيات بمشوهي القنابل من الرجال والنساء ، وعندما ظهر مئات الآلاف من البشر المنهكين يكدسون كل ليلة في هذه الخنادق التي تحتاج إلى الأمان والوسائل الصحية ، وعندما كانت طرق المواصلات بالقاطرات وغيرها تغلق باستمرار ، وعندما كانت المجاري والقوة الكهربائية والغاز تدمر تدميرًا ، وعندما يجب أن تظل - بصرف النظر عن ذلك - روح لندن المناضلة صامدة عالية . وأن يتيسر نقل حوالي مليون مواطن في كل يوم ليلاً ونهارًا من مساكنهم إلى المصانع وبالعكس ، كان يجب علينا كل هذا ، ولم يكن في مقدورنا أن نعرف مدى هذه المحنة ومتى تنتهي ، ولم يكن لدينا ما يشير إلى أنها لن تستمر أو لن تزداد سوءًا . وعندما حدثت المستر موريسون عن رغبتي بالنسبة للمهمة الجديدة كان يدرك جيدًا ما ينطوي عليه هذا العرض من خطورة ومشاكل ، فاستمهلني بضع ساعات ليفكر ، ولم يلبث أن جاءني قائلاً أنه سيكون فخورًا بالقيام بكل هذه المهمات ، وهزني إعجابًا به هذا القرار الذي يدل على كل صفات الرجولة .

وبعد أن تمت هذه التعديلات الوزارية أدى تغيير العدو لوسائله إلى أن تتأثر سياستنا العامة ، فقد كانت الغارات حتى الآن تستخدم القنابل الشديدة الانفجار ، لكن في ليلة ١٥ تشرين الأول وكان القمر بدرًا ، نزلت بنا أقسى غارات جوية في ذلك الشهر ، وأسقطت الطائرات الألمانية فضلاً عن حمولتها المعروفة من القذائف المتفجرة حوالي سبعين ألف قذيفة حارقة وكنا حتى هذه الأثناء نبث الشجاعة في سكان العاصمة ونحثهم على اللجوء

للخنادق وقت حدوث الهجوم، وكنا نفتش عن كل وسيلة ممكنة لتأمين وقايتهم . ولكن بعد هذه الليلة اضطررنا أن نطلب إليهم الصعود إلى سطوح المساكن بدلاً من اللجوء إلى الخنادق أثناء الهجوم . وكان على وزير الداخلية الجديد أن ينفذ هذه السياسة ، فأعد على الفور تشكيلاً هائلاً لمراقبي الحرائق ، ومقاومتها على مدى واسع يكفي مدينة لندن بكاملها ، فضلاً عن إجراءات أخرى اتخذت من المدن الإقليمية في أقصر مدة ممكنة . وكانت مراقبة الحرائق عملاً اختياريًا في أول الأمر، ولكن اشتداد الحاجة لمزيد من الأفراد والإحساس بحتمية قيام كل إنسان بواجبه في مثل هذه المحنة القاسية ليشارك في آلامها ، فرض علينا أن نلزم المواطنين بالمشاركة في أعمال المكافحة ، وقد أدى ذلك إلى مزيد من نشاط كافة المواطنين على جميع ألوانهم ومستوياتهم . وصممت النساء على المساهمة بقدر حيوي في هذه الخدمة واتخذت التدبيرات على نطاق واسع للقيام بتدريبات عامة ، ولتعويد مراقبي الحرائق مكافحة كل أنواع القذائف المحرقة التي يسقطها الأعداء وقد تفوق الكثيرون في أداء هذه الخدمة حتى استطاعوا أن يخمدوا ألوف الحرائق قبل شبوبها ، وسرعان ما صارت تجربة الصعود إلى أسطح المنازل ليلة أثر أخرى تحت وطأة النيران المشتعلة ودون أدنى إجراء وقائي آخر سوى الخوذة النحاسية أمرًا مألوفًا .

ورأى المستر موريسون أن يجمع الفرق المحلية للإطفاء التي يبلغ عددها حوالي ألف وأربعمائة فرقة في تشكيل قومي موحد لمقاومة الحرائق ، وأن يزود هذا التنظيم بحرس شعبي كبير للحرائق من المدنيين المدربين المتطوعين للعمل في أوقات فراغهم ، وكان حرس الحرائق أول الأمر يتألف من المتطوعين أيضًا . ولكن ما لبث أن تقرر بالإجماع تحويله إلى خدمة إلزامية ، وقد استطعنا بواسطة الجهاز القومي لمكافحة الحرائق من استخدام النقل الآلي ، وأحدث الأجهزة وأدق التدريبات في أعمال رسمية تشرف عليها مجموعة من العسكريين . أما أسلحة الدفاع المدني الأخرى فقد كانت تضمن وجود مجموعات على استعداد للتوجيه إلى أي مكان في خلال دقيقة واحدة، وقد اكتفى باسم سلاح الدفاع المدني عن الاسم القديم الذي عرف قبل الحرب بقوات الاحتياط من الغارات الجوية وزود رجال السلاح الجديد بملابس عسكرية خاصة تبث الشعور في نفوسهم بأنهم يؤلفون

السلاح الرابع من قوات التاج المسلحة .

وقد اغتبطت لأن لندن قد صمدت أمام الموجات المتتالية من الغارات الجوية على مدننا. أن لندن تشبه فيما أرى حيوانًا هائلاً من حيوانات ما قبل التاريخ في وسعها أن تتحمل الأذى المخيف، ثم تظل رغم جراحها النازفة عتبة الصمود تموج بالحياة والحركة . وقد كثرت خنادق أندرسن في إحياء الطبقات العاملة المكونة من بيوت ذات طابقين . وقد بذلنا كل ما في وسعنا لتكون هذه الخنادق صالحة للإقامة والحياة ، مع الحرص على تخفيفها من الرطوبة أثناء الأمطار .

❖ ❖ ❖

وللمرة الأولى منذ حوالي شهرين لم تدو في الجو صفارة الإنذار ليلة الثالث من تشرين الآخر في لندن ، فاستغرب الكثيرون جو الهدوء السائد وبدؤوا يتساءلون ما الخبر ؟ وفي الليلة التالية شنت الغارات على نطاق واسع حتى عمت أكثر الجزر البريطانية ، وظل هذا بصفة مستمرة إلى بعض الوقت واتضح أن الألمان قد جددوا وسائلهم الهجومية ، وبالرغم من أن لندن استمرت كهدف أساسي إلا أن جهودًا ملحوظة كانت تبذل لتشل العمل في المراكز الصناعية البريطانية . وقد أرسل العدو أسرابًا جديدة مدربة على ابتكارات جديدة في الملاحة الجوية لتهاجم مراكز حساسة في الجزيرة ، فمثلاً تمرنت فرقة خاصة من الطائرات الألمانية على تحطيم مصانع آلات الطائرات «رولز رويس» في («هلينجتون» قرب غلاسكو ، ولا شك في أن هذه الخطة الجديدة لم تكن تعني مجرد التغيير ، فقد قرر العدو تأجيل غزو بريطانيا إلى حين ، ولم يكن قد انتهى من تدبير هجومه على روسيا بعد ، كما لم يفكر فيه أحد غير هتلر والمقربين إليه . وهكذا كانت أشهر الشتاء الباقية مجرد فترة تمرينات بالنسبة لسلاح الجو الألماني على التكتيكات الجديدة في الهجوم الليلي والإغارة على التجارة البحرية في بريطانيا . أما الغاية من ذلك فهي تدمير إنتاجنا العسكري . وكان أجدى للألمان لو ظلوا على هجومهم في ناحية واحدة حتى آخر الشوط فربما وصلوا إلى نتيجة حاسمة ، ولكن الحيرة والتردد كانا طابعهم في ذلك الوقت ؛ لأن ثقتهم بأنفسهم كانت غير كاملة .

وبدأت هذه الوسائل الجديدة في الهجوم بغارة جوية عارمة على كوفنتري ليلة الرابع عشر من تشرين الآخر ، وقد اتضح لغورنغ أن مدينة لندن شاسعة الأبعاد إلى الدرجة التي لا تتيح له نتائج فاصلة، بينما كان في مقدوره أن يزيل من الوجود مدن الأقاليم ومراكز إنتاج الذخيرة ، وقد بدأ الهجوم في الساعات الأولى من الليل وتواصل حتى الفجر واشترك فيه حوالي خمسمائة طائرة ألمانية أسقطت حوالي ستمائة طن من القذائف الشديدة الانفجار عدا ألوف القنابل المحرقة . وكانت تلك الغارة أقسى ما دهمنا من غارات ثقيلة مدمرة بصورة عامة ، فقد تحطم قلب كوفنتري ، وأصيبت الحياة بالشلل التام في المدينة ، وقد قتل حوالي أربعمائة شخص كما أصيب بجراح عدد أضخم من هذا بكثير . وأذاعت ألمانيا أن جميع مدننا ستلقى نفس المصير ، ومع هذا فلم يعطل العمل بمصانع الطائرات أو قطع الماكينات الأخرى ، كما لم تمت حركة أهل المدينة بالرغم من عدم مجابهتهم قبل ذلك لمثل هذه الغارات. ولم يمر أسبوع حتى كانت لجنة تجديد الأبنية قد قامت بأعمال رائعة تيسر عودة الحياة إلى طبيعتها في المدينة .

وشن العدو ليلة ١٥ تشرين الآخر هجومًا آخر على لندن استخدم فيه عددًا ضخمًا من الطائرات في ضوء القمر الساطع فأصيبت العاصمة بكثير من الخسائر وخاصة في كنائسها ونصبها التذكارية ، وكانت بيرمنجهام هدف العدو الثالث ، فشن عليها هجومه لثلاث ليال متتابع بين ١٩ و ٢٢ تشرين الآخر فأصيبت المدينة بخسائر فادحة في الأرواح والممتلكات ، ووصل عدد القتلى إلى حوالي ثمانمائة والجرحى أكثر من ألفين ، ولكن روح بيرمنجهام وحياتها قاومتا المحنة ، وارتفع المليون من أهلها بتنظيمهم ووعيهم وفهمهم إلى أعلى مما نزل بهم من آلام . وتحولت وجهة الغارات في آخر أسبوع من الشهر نفسه ومطلع شهر كانون الأول إلى الموانيء فتعرضت برستول وساوثها مبتون وليفربول لهجمات قاسية ، ومرت بلايموت وشفيلد ومانشستر وليدز وجلاسكو بالمحنة ذاتها بشجاعة نادرة ولم يعد يعنينا أن يوجه العدو ضربته فإن الشعب كله واجهها بإيمان وصبر وعزيمة.

وبلغت الغارات ذروتها مرة ثانية حين شن العدو هجومه على مدينة لندن يوم الأحد في ٢٩ كانون الأول ، فقد جمع الألمان فيها كل ما حصلوه من خبرات ، فكان الهجوم مفعمًا

بالقذائف المحرقة التي ركزت قسوة نيرانها على حي «السيتي» . وكانت هذه الغارة مدبرة لتقع حين ينحسر الماء عن النهر بسبب الجزر ، فتهدمت سدود المياه في بداية الأمر بسبب ألغام شديدة الانفجار أسقطتها المظلات ، وكان الضرر الذي أصيبت به محطات السكة الحديدية والأرصفة فادحًا ، وهدمت ثماني كنائس وشبت الحرائق في «غيلدهول» وفي كاتدرائية القديس بولس ، ولم تنج من الدمار إلا بجهود خارقة تفوق حد الوصف ، وأخذنا نرى الخراب يجتاح العالم البريطاني ، ولكن عندما زار الملك والملكة هذه الأماكن المصابة قوبلا بحماس بالغ أشد مما كانا يقابلان به في أية زيارات أخرى .

وظل الملك صامدًا في غضون هذه الأشهر الطويلة من التجربة القاسية والتي لم تنته بعد في قصر باكنجهام ، وقد شيدنا خنادق ملائمة في الطابق الأسفل من القصر ، ولكن أعمال البناء استلزمت الكثير من الوقت ، وكثيرًا ما حضر الملك خلال اشتداد الغارة من قصر باكنجهام . وقد أنقذ جلالته والملكة بأعجوبة من الموت ذات مرة . ففي حديقة القصر أنشئ ميدان خاص للرماية ، كان جلالته وغيره من أفراد الأسرة المالكة ، وكبار رجال الحاشية يتدربون على الرماية فيه بالمسدسات ومدافع التومي ، وقد قدمت للملك غدارة أميركية قصيرة المدى ، كانت واحدة من مجموعة وصلتني وكان سلاحًا قيمًا .

وبدل الملك في تلك الأثناء موعد لقائي الرسمي بجلالته من الساعة الخامسة مساء كل يوم ثلاثاء كما جرت عادته في خلال الشهرين الأولين منذ توليت الحكم ، إلى أن أتناول الغذاء معه في نفس اليوم من كل أسبوع . وكنت في هذه الزيارات التي قد تحضرها الملكة ، أعرض على جلالته شؤون الحكم ، وكثيرًا ما اضطررنا إلى حمل صحاف الطعام وأقداح الشراب إلى الخندق الذي كان لا يزال في حالة الإعداد فنستكمل طعامنا فيه ، وأصبحت هذه الزيارات الأسبوعية عادة رتيبة ، وبعد مرور الأشهر الأولى ، أمر جلالته أن يبعد الخدم جميعًا من هذه الاجتماعات وأن نمارس نحن خدمة أنفسنا بأنفسنا ، وقد تكشف لي خلال السنوات الأربع والنصف التالية من الحرب أن جلالته كان يطلع بكثير من الاهتمام على جميع البرقيات والوثائق الرسمية التي أقدمها إليه ، ويقرر العرف الدستوري البريطاني أن من حق الملك أن يطلع على كل شيء يقع تحت اختصاصات وزرائه ، وأن يقدم المشورة إلى

حكومته بدون قيد ولا شرط ، وكنت حريصًا جدًا على أن أطلعه على كل شيء ، وكثيرًا ما بدا لي خلال اجتماعاتنا الرسمية الأسبوعية أنه قد قام بدراسة كافة الوثائق التي لم أكن قد درست بعضها بعد ، وأنني لأقول أن من حسن الطالع لبريطانيا أنه كان على عرشها في مثل هذه السنوات المصيرية ملكان خيران كملكنا ومليكتنا ، وأني كواحد من الذين يؤمنون بالملكية الدستورية ، نظرت ببالغ التقدير إلى الشرف الذي أسبغه على صاحب الجلالة بهذه الصلات التي وثق عراها معي كوزيره الأول ، وأنني لا أرى لذلك نظيرًا في تاريخنا إلا في أيام الملكة آن ورئيس حكومتها مارلبورو .

وهكذا أبلغ بنا العام إلى نهايته ... ، وأن كنت قد استطردت ـ راغبًا ـ بعيدًا عن شؤون القتال الخاصة ، وسيري القارئ أن كل هذا الدوي وتلك الزعازع لم تكن إلا رفيقًا على الطريق يسير مع إجراءاتنا الهادئة التي حرصنا عليها في إدارة جهودنا الحربية ، وتوحيد سياستنا ودبلوماسيتنا ، وعلى أن أقر هنا أن هذه الخسائر التي منينا بها والتي لم تكن مميتة ، كانت في اعتبارنا نحن المقيمين في قمة الموقف دافعًا فعالاً للتعبير عن آرائنا ، وتوطيد زمالة بارة بيننا وتدعيم أسس أعمالنا الجوهرية الواعية ، وربما يكون من غير الحكمة على كل حال أن أفترض بأن الغارات التي شنت علينا لو تزايدت إلى عشرة أو عشرين ضعفًا أو حتى بنسبة ضعفين أو ثلاثة فإن هذه الانطباعات السليمة التي فصلتها ، كانت ستوجد بصورة مؤكدة ، وعلى النحو الذي أوضحت .

❖ ❖ ❖